

( وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ) .

[ ٢٥ - ٢٩ ] .

( وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ) الاستباق وهو افتعال من السبق بمعنى أن كل واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب .

ووجه تسابقهما: أن يوسف عليه السلام أسرع بالفرار من أمامها إلى الباب هروبا من الفاحشة التي طلبتها منه . وهي أسرعته خلفه لتمنعه من الوصول إلى الباب ومن الخروج منه .

( وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ) القد: القطع والشق، وأكثر استعماله في الشق والقطع الذي يكون طولا، وهو المراد هنا، لأن الغالب أنها جذبتة من الخلف وهو يجري أمامها فانخرق القميص إلى أسفله .

( وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ) أي : واستمر يوسف هاربا ذاهبا ، وهي في إثره ، وصادفا ووجدا زوجها عند الباب الذي تسابقا للوصول إليه .

فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها:

( قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ) أي : فاحشة .

( إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ) أي : يجبس .

( أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) أي: يضرب ضرباً شديداً موجعا .

● وهذه الجملة الكريمة التي حكاها القرآن الكريم عنها، تدل على أن تلك المرأة كانت في نهاية المكر والدهاء والتحكم في إرادة زوجها .

( قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي ) أي: قال يوسف مدافعا عن نفسه: إني ما أردت بها سوءاً كما تزعم وإنما هي التي بالغت في ترغيبى وإغرائى بارتكاب ما لا يليق معها .

( وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ) سخر؟؟؟ في تلك اللحظة الحرجة، من يدلي بشهادته لتثبت براءة يوسف أمام العزيز . (الظاهر: الله) قال العلماء : وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة .

واختلف العلماء في المراد بهذا الشاهد .

قال الشنقيطي : واخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الشَّاهِدِ فِي قَوْلِهِ ( وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ) .

فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : هُوَ صَبِيٌّ فِي الْمَهْدِ .

وَمَنْ قَالَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَالضَّحَّاكُ ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا أَنَّهُ رَجُلٌ دُوَّ لِحِيَّةٍ ، وَخَوْهُ عَنِ الْحَسَنِ .

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّهُ ابْنُ عَمِّ لَهَا كَانَ حَكِيمًا ، وَخَوْهُ عَنْ قَتَادَةَ ، وَعِكْرِمَةَ .

وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ لَيْسَ بِإِنْسِيٍّ ، وَلَا جَانٍّ ، هُوَ خَلَقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ .

قَالَ مُقْبِدُهُ عَمَّا اللَّهُ عَنْهُ : قَوْلُ مُجَاهِدٍ هَذَا يُرَدُّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ( مِنْ أَهْلِهَا ) لِأَنَّهُ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ إِنْسِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْمَرْأَةِ .

وَأَظْهَرُ الْأَقْوَالِ : أَنَّهُ صَبِيٌّ .

لحديث ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ ( تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صِغَارٌ : ابْنُ مَاشِطَةَ فِرْعَوْنَ ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ) رواه أحمد . ( أضواء البيان ) .

• وقال الشوكاني : فقيل : كان صبياً في المهد .

ويؤيدها حديث (تكلم في المهد أربعة وهم صغار: ابن ماشطة ابنة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم).  
وقيل : كان ابن عمِّ لها واقفاً مع العزيز في الباب .

وقيل : ابن خال لها .

وقيل : إنه رجل حكيم كان العزيز يستشيره في أموره ، وكان من قرابة المرأة .

( إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قُبُلٍ ) أي : من أمام .

( فَصَدَقْتُ ) أي : أنه أراد بها سوءاً، لأن ذلك يدل على أنها دافعته من الأمام وهو يريد الاعتداء عليها.

( وَهُوَ مِنَ الْكَادِبِينَ ) في قوله : هي راودتني عن نفسي .

( وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ ) أي : من خلف .

( فَكَذَّبَتْ ) أي : في دعواها على أنه أراد بها سوءاً، لأن ذلك يدل على أنه حاول الهرب منها، فتعقبتة حتى الباب، وأمسكت به من الخلف .

( وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ) في دعواها أنها راودته عن نفسه.

( فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ ) أي: فلما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به .

( قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ) أي : إن هذا الأمر من جملة مكرن واحتيالكن أيتها النسوة .

( إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ) قال القرطبي : وإنما قال ( عظيم ) لعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن .

( يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا ) ثم قال أمراً ليوسف ﷺ بكتمان ما وقع: يا ( يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا ) أي: اضرب عن هذا الأمر صفحاً ، فلا تذكره لأحد .

( وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ) أي: الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قذفه بما هو بريء منه، استغفري من هذا الذي وقع منك .

( إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ) أي : من القوم المتعمدين للذنب .

• وفي هذا إشارة إلى أن العزيز كان قليل الغيرة حيث لم ينتقم ممن أرادت خيانه ، وتدنيس فراشه بالإثم والفجور .

• قال ابن كثير : وقد كان ( زوجها ) لين العريكة سهلاً أو أنه عذرهما ، لأنها رأت ما لا صبر لها عنه .

جاء في التفسير الوسيط : وهكذا نجد هذا الرجل - صاحب المنصب الكبير - يعالج الجريمة التي تنور لها الدماء في العروق، وتستلزم حسماً وحزماً في الأحكام، بهذا الأسلوب الهادئ البارد، شأن المترفين في كل زمان ومكان، الذين يهتمهم ظواهر الأمور دون حقائقها وأشكالها دون جواهرها، فهو يلوم امرأته لوماً خفيفاً يشبه المدح، ثم يطلب من يوسف كتمان الأمر، ثم يطلب منها التوبة من ذنوبها المتعمدة.. ثم تستمر الأمور بعد ذلك على ما هي عليه من بقاء يوسف معها في بيتها .

الفوائد :

١- وجوب الهروب من الفتن ، وأن من أعظم أسباب النجاة من الفتن الهروب والفرار منها والابتعاد عنها .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ( يُوْشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ عَنَّمْ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ ) .

وفرار الإنسان بدينه من الفتن من الإيمان .

وقد مدح الله من فر بدينه :

قال تعالى (وَإِذِ اعْتَرَّتْهُمُومًا وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ ) .

وقال تعالى ( قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا . وَأَعْتَرْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ) .

وقال ﷺ ( من سمع بالدجال فليأمن عنه ) رواه أبو داود .

قال ابن القيم : فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه .

ب- وعن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ( سَتَكُونُ فِتْنٌ ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي ، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي ، وَمَنْ يَشْرَفَ لَهَا تَسْتَشْرِفُهُ ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيُعِذْ بِهِ ) متفق عليه .

ج- عَنِ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ ، قَالَ : ائِمُّ اللَّهِ ، لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ( إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ ، وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهَا ) رواه أبو داود .

د- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قَالَ ( بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، إِذْ ذَكَرَ الْفِتْنَةَ ، فَقَالَ : إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ قَدْ مَرِحَتْ عُهُودُهُمْ ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ ، وَكَانُوا هَكَذَا وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ، قَالَ : فَعُمْتُ إِلَيْهِ ، فَعُلْتُ : كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ؟ قَالَ : الزَّمْ بَيْتَكَ ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةٍ نَفْسِكَ ، وَدَعْ عَنكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ ) رواه أبو داود .

٢- الحق والباطل دائماً في صراع .

٣- مشروعية الدفاع عن النفس .

٤- للحق والصدق أمارات يعرف بها .

٥- من الفراسة الاستدلال بالأمارات وشواهد الحال .

٦- أن الكيد والمكر من صفات الضعفاء .

٧- ضعف الغيرة في أصحاب القصور والطبقات المترفة .

٨- خطر الترف .

٩- هم الملوك هو المحافظة على الظواهر .

١٠- فساد أخلاق الرجل مدعاة لفساد أهل بيته .